الباب الرابع

علم النفس

معناه — فائدته فى تفهم نفسية الأفراد والجماعات — دراسة الطفل وأهميتها .

oberkanal.com

obeikandl.com

معنى علم النفس

لقد اهتم الإنسان منذ وجوده بدراسة ما يحيطه من الأشياء والكائنات والظواهر ، وهداه عقله بالتدريج إلى جمع المعلومات الكثيرة عن العالم الذى يعيش فيه . ثم قسّم تلك المعلومات وفصلها عندما كبرت وتشعبت ، حتى يسهل عليه البحث فى كل قسم منها . ومن ثم نشأت العلوم المختلفة من علم الطبيعة الذى صار مبحثه خواص المادة ، وعلم النبات ومحور البحث فيه هو النبات ، وغيرهما من باقى العلوم المعروفة .

ولقد اهتم الإنسان بنفسه منذ أول الحياة ، فبدأ يدرس أفكاره وميوله وحالاته النفسية المختلفة ، واتسعت دراسته لنفسه مع الزمن ، وشملتها الفلسفة التى شملت مباحث أكثر العلوم المعروفة الآن . وبذلك صار من ضمن مباحث الفلسفة سلوك الانسان وتفكيره وميوله وطبيعته .

ولم تقتصر أبحاث الفلاسفة على الإنسان فقط ، بل شملت الحيوان أيضا ، فبحثوا فى سلوكه وقارنوا بينه وبين الإنسان فى ذلك . ولما أن اتسعت هذه المباحث ، بدأت تنفصل عن الفلسفة ، وانفرد لها علم خاص هو علم النفس .

وكانت دراسة السلوك نظرية لا ترتكن إلى التجارب ، ولا تؤيدها آلات أو أجهزة للقياس ، ولكن الفلاسفة منذ عهد قريب رأوا ضرورة الاستعانة بالتجارب العملية ، فقاموا بشىء منها فى القرن التاسع عشر ، ثم اتسعت هذه التجارب وكثرت فى أواخر ذلك القرن ، وبدأ العلماء ينشئون

معامل لعلم النفس فى جميع أنحاء العالم المتمدين ، فازدادت بذلك مباحث العلم ، وتوطدت حقائقه ونظرياته ، بعد أن وضعت على أساس علمى صحيح .

فموضوعات علم النفس كانت قاصرة فى أول الأمر على ملاحظات لسلوك الانسان وحالاته النفسية والعقلية ، وكان يقوم بهذا البحث جماعة الفلاسفة . فلما اتسعت الأبحاث وانتشرت أخذت تنفصل عن الفلسفة ، ويكوِّن مجموعها علما جديدا مستقلا سمى بعلم النفس ، صار يتمتع بما تتمتع به بقية العلوم من تجارب عملية قد بلغت فى السنين الأخيرة درجة كبيرة من الدقة والاتقان .

ويمكننا أن نعرِّف علم النفس بأنه العلم الذى يبحث فى الحالات النفسية والعمليات العقلية ، كيف تنشأ ، وماذا يصدر عنها من أنواع السلوك .

ويمكننا أن نقول عنه إنه علم السلوك ، أو العلم الذى يبحث فى سلوك الحيوان (بشرط ألا يكون آليا كحركة القلب والرئتين أو غمض الجفن إذا اقترب شىء نحو العين) ، وفى القوى التى يتسبب عنها هذا السلوك .

أو هو علم العقل ، إذا عرفنا أن العقل هو القوة التى يصـــدر عنها السلوك غير الآلى .

ومن هذه التعاريف يمكننا أن ندرك أن علم النفس علم محايد يهتم بالسلوك أيا كان ، ويدرس النزعة الطيبة كما يدرس النزعة الخبيثة ، دون أن يصدر عليها حكما من الأحكام .

فهو إذن يختلف اختلافا واضحا عن علم الأخلاق وعلم الاجتماع ؛ فاولهما يبحث فيما يجب أن تكون عليه أخلاق الإنسان ، وثانيهما يبحث فيما يجب أن تكون عليه علاقة الفرد بالمجتمع والمجتمع بالفرد .

ولأن علم النفس يبحث فى سلوك الانسان والحيوان ، فهو يرتبط

بعلوم كثيرة كالمنطق والتربية والاجتماع والحيوان ووظائف الأعضاء وغير ذلك ، إذ أن مبحث كل من هذه العلوم تمس عن قرب أو عن بعد ، عقل الإنسان أو سلوك الحيوان .

فالمنطق يبحث فيما يجب أن يكون عليه تفكير الانسان ، وعلم النفس يبحث فى تفكيره بوجه عام سواء كان صائبا أو خاطئا ، منطقيا أو غير منطقى .

والتربية تبحث فى استغلال نزعات الطفل وميوله ، وتوجيهها التوجيه الصالح ، حتى يدخل مجتمع الحياة فرداً صالحا يسعد ويُسْعِد المجتمع الذى هو فيه ، وعلم النفس يبحث فى سلوك الانسان وميوله ونزعاته ؛ فلا هو يعمل على توجيهها ، ولا يهتم باستغلالها ، ولكنه يعطينا فكرة عن نوع هذه الميول وقوتها وخصائصها .

فائدته فى تفهم نفسية الأفراد والجماعات :

ولقد تغلغل علم النفس فى كل شىء فى الحياة ، واستفادت منه الأفراد والجماعات فى نواح كثيرة ، ولاتساع مباحثه ، وكثرة تشعبها قسم إلى فروع أهمها علم النفس التعليمى ، وعلم النفس الصناعى وعلم النفس الاجتماعى والتحليل النفسانى .

أما علم النفس التعليمى ، فيشمل تلك المباحث التى يمكن أن يستفيد منها المربى فى تربيته للأطفال . فالمربى الذى يقف على طبيعة الطفل فيعرف ميوله وذكاءه ، يمكنه أن يربيه على أساس تلك الميول ، ويوجهه فى دراساته تبعا لمقدار الذكاء الذى عنده . والمربى الذى يعرف من علم النفس أن الطفل يقطع فى أثناء نموه مراحل مختلفة ، تتميز كل منها بمميزات خاصة ، يمكنه أن يسير معه فى كل مرحلة تبعا لتلك المميزات ، ويعطيه فيها ما يناسبه ويتفق معه .

والمربى الذى يعرف من علم النفس أن غرائز الطفل باقية ما عاش ، لايمكن أن تندثر وتموت ، وأن الضغط عليها ضار بتكوينه الصحى ، يعمل على إعطاء هذه الغرائز شيئا من الحرية حتى يُمكِّن الطفل من إرضائها ، عاملا فى الوقت نفسه على توجيهها فيما يعود عليه بالفائدة .

ولقد استفادت ميادين الصناعة من علم النفس ، وأُفردت مباحث خاصة بالصناعة ومايتصل بها ، وأصبح للعلم فرع يعرف بعلم النفس الصناعى ، يبحث فى العمل والعمال ، والمهنة وأصحابها ، ويقفنا على أحسن نظام لترتيب اوقات العمال حتى ينتجوا أكبر انتاج ، دون أن يُرهقوا أو يصيبهم الضعف والسقم .

ويختلف ترتيب أوقات العمل بالنسبة للعمل نفسه ؛ ففى بعض المصانع يستحسن ان يستريح العامل كل ساعتين ، وفى البعض الآخر كل اربع ساعات وهكذا .

ولقد أفادت مباحث هذا الفرع فى تنظيم العمل بالمصنع ، ووضع أدوات العمل وآلاته ، بحيث لا يضيع وقت العامل فى البحث عنها من بين أدوات أخرى ، كما نُظِّمت حركاته تبعا للأعمال المختلفة ، فأراحته بذلك فى أثناء تأديته لها ، وفى الوقت نفسه جعلته ينتج أضعاف ما كان ينتج من قبل .

ولقد استفاد كثير من أصحاب الأعمال فى أوروبا وأمريكا بعد ماطبقوا مباحث علم النفس الصناعى فى مصانعهم حتى وصلت الزيادة فى إنتاج بعض المصانع الى أربعة أمثال ما كانت عليه من قبل ، فعاد ذلك بالربح الوفير عليهم وعلى العامل ، إذ استطاعوا أن يزيدوا أجره ، ويهيئوا له فى مصنعه أسباب الراحة ؛ كما استفاد من ذلك الجمهور إذ استطاع أصحاب الأعمال أن يخفضوا من أسعار ما ينتجون فى مصانعهم .

ولقد ذكرنا أن علم النفس يبحث فى سلوك الفرد ؛ والفرد يعيش وسط

المجتمع ، ولذلك كان لعلم النفس أن يبحث فى علاقة الفرد بالمجتمع . وقد أفردت لذلك مباحث خاصة ، وكوّن مجموعها فرعا جليل الشأن من فروع علم النفس ، ويسمى علم النفس الاجتماعى ؛ فيمكننا بدراسة الفرد كعضو من أعضاء المجتمع ، أن نعرف كيف يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه ، وكيف نجعله عضواً صالحا ، وكيف ننشىء رابطة قويمة وثيقة بينه وبين من يعيشون معه .

فالحاكم يستفيد من دراسة الفرد فى المجتمع حتى يجعله خاضعا لنظمه وقوانينه ، والواعظ والمعلم والخطيب والممثل وغيرهم ، كل أولئك يستفيدون من دراستهم لعلم النفس فى التأثير على الجماهير بما يشاؤون ، واستهوائهم لما يريدون .

ولقد استطاع بعض المصلحين فى أمريكا ، أن يُحوِّلوا بعض عصابات الناشئين المفسدين إلى جمعيات تتعاون مع البوليس فى اقتفاء أثر المجرمين ، وقطع دابرهم .

وبالمثل ، استفاد المصلحون كذلك من دراسة المجرمين ، والوقوف على ميولهم الشريرة وما كوّنها فيهم ، وأصبحوا يعاملونهم فى السجون بما يكون فيه صلاحهم وخروجهم للمجتمع أفرادا مستقيمين .

كذلك تبين من مباحث علم النفس أن كثيرا من الشذوذ الذى يحدث فى بعض الأطفال والكبار ناشىء عن سوء معاملة ميول الأفراد وهم أطفال صغار ؛ كما أن بعض الأمراض لا ترجع أسبابها إلى عوامل فسيولوجية يمكن علاجها بالعقاقير الطبية ، بل إن بعض الحالات النفسية لتحدث مثل هذه الأمراض . ولذلك وجب معالجة هؤلاء معالجة نفسانيـــة حتى تزول الآثار السيئة التى نشأت عما أصاب ميولهم وطبائعهم من شر المعاملة فى إبان الطفولة . ولا يتسنى ذلك إلا بعد أن نتفهم نفسيات هؤلاء الأفراد ، ونعرف

ما أصابها فى صغرهم . ويمكن القيام بذلك عن طريق التحليل النفسانى ، وهو مبحث ذو شأن عظيم من مباحث علم النفس .

ولكم أفاد علم النفس من ناحية التحليل فى شفاء أمراض كالشلل والصمم لم ينفع فى شفائها الطب ، لأنها نتيجة لاضطرابات نفسية . ولكم رد التوازن إلى عقول مختلة ، والاطمئنان إلى نفوس قلقة ، والثقة والقوة إلى أفئدة ضعيفه عاجزة .

لقد تدخل علم النفس فى كل شىء ، وأفاد أعم الفائدة وأكبرها ، فالتاجر يستفيد منه فى تفهم نفسيات عملائه ليستهوى كلا إلى بضاعته بالطرق التى تنفعه ؛ والصانع يختار لنفسه ما يلائم طبيعته من الأعمال ، فيكثر من إنتاجه ؛ والطبيب فيكتسب ثقة مريضه ، ويشجعه على التخلص من مرضه ويعرف ما إذا كان ناشئا عن عوامل جسمية فيسير معـــه حتى الشفاء ، أو عوامل نفسانية فيرسله لمن يتعهده بالتحليل النفسانى ؛ والواعظ فيؤثر به على نفوس سامعيه ؛ والمربى فيفهم نفسيات الأطفال وميولهم وعقلياتهم ، حتى يتمكن من وضع طرق التربية الصحيحة فى مراحل النمو المختلفة التى يجتازها الطفل .

دراسة الطفل وأهميتها :

لقد بدأت دراسة الطفل من قديم الزمن ، وبنى المربون آراءهم على نوع دراستهم التى لم تدعمها التجارب والأبحاث الدقيقة ، ولذلك اختلفت تلك الآراء فمنهم من اهتم بتربية الطفل تربية جسمية كالتربية الأسبرطية ، ومنهم من عامله معاملة الكبار فأعطاه أكثر مما يستسيغه عقله ، كالتربية فى القرون الوسطى . وعلى العموم كانت الفكره السائدة فى جميع العصور الضغط على الطفل ، وكبت غرائزه ونزعاته الطبيعية ، إذ اعتقدوا أنها مصدر شرور الحياة .

ولقد بدأ عهد جديد فى دراسة الطفل منذ القرن الثامن عشر ، واستهل المربون ذلك العهد بجعل تربيته مبنية على أساس دراسته ، وكان أعلا المربين صوتا وأشدهم أثرا (روسو) الفرنسى ، الذى يعتبر أول من بنى قواعد التربية على دراسة الطفل . وقد أراد بذلك أن ينقذه مما كان قد طوقه من القيود القديمة فنادى بالرجوع إلى الطبيعة ، وأخذ الطفل بما يلائم قواه وميوله .

وفى أوائل القرن العشرين ، بدأت الهيئات القائمة بشئون التربية والتعليم فى البلاد الأجنبية تشعر بتأخر أطفالها من الوجهة النفسية والاجتماعية ، فقام لفيف من كبار علماء النفس بالبحث فى هذا الموضوع ودرسوا الطفل من الناحيتين الآتيتين :

(١) الناحية الصحية ، وفيها بحثوا عن الشروط اللازمة لحياة الطفل الصحية ، ودرسوا ما يحتاجه الطفل النامى من الهواء الطلق والغذاء والملبس والراحة والرياضة وغيرها .

وكانت نتيجة هذه المباحث أن أُنشئت مؤسسات متنوعة لرعاية الأطفال ، كما أنشئت الملاعب المختلفة فى المدن الكبيرة .

(٢) الناحية النفسية ، وفيها درسوا عقلية الطفل وميوله ونزعاته وقواه واستعداداته كى تقوم تربيته على أساس ما يتفق معها ، وبذلك أناروا الطريق للمربين فسهلوا لهم القيام بأعباء المسئولية العظيمة الملقاة على عاتقهم .

فالمربى يجب أن يبدأ بدراسة طبيعة الطفل واستعداداته وميوله وغرائزه وعقليته والفوارق التى بينه وبين غيره من الأطفال ، وغير ذلك من الأمور النفسية الهامة ، حتى يستطيع أن يبنى عمله على أساس صحيح ، وهو تنمية قوى الطفل ، والانتفاع بها على الوجه الأكمل : فتفهُّم الطفل هو أهم شىء

يعتمد عليه المربى فى أداء وظيفته ، إذ ليس من المستطاع أن يربيه أو يعلمه على الوجه الصحيح دون أن يدرس نفسيته .

يتضح لنا مما تقدم أن الدعامة الكبرى التى يبنى عليها أساتذة علم النفس صرح التربية والتعليم فى أطواره الأولى ، هى دراسة الطفل دراسة تفصيلية ، يمكن على أساسها أن يُقـــدَّم إليه فى كل طور من اطواره نموه المختلفة ، ما يناسبه من التربية والتعليم . وبذا استطاعوا أن يكشفوا عن الأسس الصحيحة التى يجب أن يعتمد عليها المربون فى تنمية الفكر وتقوية الحكم وتكوين الخلق المتين والشخصية البارزة .

وليست هذه الدراسة من الأمور السهلة التى يتسنى لكل إنسان أن يعالجها ، بل إنه لا يستطيع أن يلاحظ الأطفال ويدرسهم ، إلا من فطر على حبهم والعناية بشئونهم ، وكان قادراً على أن ينزل إلى مستواهم العقلى ، وكان صبوراً كثير العطف عليهم ، ليستطيع بذلك أن يجذبهم إليه ، كما يجب أن يكون مشبعا بطرق البحث العلمى ، ملماً بأصول علم النفس وبهذا يمكنه أن ينظر اليهم ويسمع منهم ويفهمهم ويندمج فى حياتهم العقلية والنفسية .

وهناك طريقتان متبعتان فى دراسة الطفل وهما :

الطريقة الفردية ، والطريقة الجمعية .

الطريقة الفردية :

وهى القيام بملاحظة تفصيلية للطفل فى أثناء حديثه ولعبه ومظاهر نشاطه المختلفة التى يبديها فى أدوار نموه . ونستطيع مباشرتها بوسيلتين :

(ا) الملاحظة الخارجية (ب) التجريب

ا — الملاحظة الخارجية : وهى طريقة من السهل اتباعها مع الأطفال لأنهم

لا يتظاهرون بغير الحقيقة كما يفعل الكبار . والطريقة هى أن نتأمل فى أعمال الطفل ثم نحاول أن نفسرها من الوجهة النفسية بعد أن نفحص الطفل نفسه من الوجهة الجسميه ، ونقف على حالته الصحية العامة ، ومبلغ قوة حواسه أو ضعفها ؛ كما يجب أن نلم بعض الإلمام ببيئة الطفل التى يعيش فيها حتى يكون حكمنا صحيحاً ، وتأتى دراستنا بالفائدة المطلوبة . وتشمل هذه الطريقة ملاحظة قدرة الطفل العقلية ، من حيث سرعة الفهم أو بطئه ، وميله إلى الاستطلاع وقوة عزيمته ، وشوقه إلى التحصيل ، وذكائه الطبيعى وقوة التفكير والانتباه والذاكرة والخيال وغير ذلك ، علاوة على مراقبة ظهور القوى الكامنة فى نفسه .

ب — أما التجريب : فما هو إلا ملاحظة الطفل فى ظروف خاصة نهيئوها له ونحيطه بها ، وتتميز طريقة التجريب عن طريقة الملاحظة فى أننا نستطيع أن نكرر نفس التجارب عدة مرات حتى نتحقق من نتائج ملاحظتنا له . ومثال ذلك وضع الأطفال فى أمكنة مزودة باللُّعَب على اختلاف أنواعها ، وملاحظة ميولهم فى أعمارهم المتباينة .

ولا بد أن نعتمد على هاتين الطريقتين معاً (الملاحظة والتجريب) لنحصل بهما على حقائق ثابتة عن طبائع الأطفال .

الطريقة الجمعية :

وهى لا تقوم على دراسة طفل خاص ، بل على مجموعة من الأطفال ، فندرسهم فى اثناء عملهم ولعبهم وتنافسهم وغير ذلك من الظروف المختلفة ، ونعطيهم اختبارات جمعية معينة مثل اختبارات الذكاء والاختبارات المدرسية ، حتى نقف من كل ذلك على مدى نموهم العقلى والنفسانى من حيث

التفكير والإدراك والملاحظة والانتباه والحفظ وقوة الاستهواء والوجدان وغير ذلك .

القيمة العملية لدراسة الطفل :

١ — قد ساعدت دراسة الطفل على تفهم طبيعته وأطوار نموه المختلفة واكسبته حقوقا بعد أن لم يكن عليه إلا واجبات ، وصار ذا شخصية حقيقية ، يتمتع بكثير من الحرية التى تساعد على تنمية قواه الجسمية والعقلية والخلقية .

٢ — وجّهت أنظار المربين من والدين ومعلمين إلى الفروق بين الأفراد وحملتهم على الاهتمام بها ، وصار من غايات التربية إنماء القوى المختلفة فى الأطفال ، والوصول بها إلى الدرجة المقدرة لها .

٣ — ساعدت المربين فى الوقوف على القوى العقلية فى الأطفال ، فأصبحوا قادرين على معرفة أن هذا الطفل ذكى وذلك غبى مثلا ، وآخر ضعيف الذاكرة أو بطىء الحفظ وغير ذلك . ومن هذا يعرف المربى ما يناسب الطفل فيعمل على إمداده به ، ولا يلومه على تأخر قد لا يكون له ذنب فيه ، أو ينسب اليه الكسل ويؤذيه ، دون أن يدرس العوامل والظروف التى تحوطه ، والتى قد تكون السبب فى ذلك التأخر أو الكسل .

٤ — تسببت فى إصلاح كثير من الغلطات الشائعة فى تعليم الصغار رأخصها التعليم النظرى الخالى من التدريب العملى . وبذا وفرّت على الأطفال والمربين وقتاً كبيرا وجهدا عظيما كانا يضيعانه سدى من جرّاء سوء الطرق ، والجهل بطبائع الأطفال وأطوار نموهم .

٥ — أفادت فى وضع مناهج مرنة تتناسب وقوى الأطفال .

٦ — ساعدت المربين على فهم المشاكل الأخلاقية وصار الآباء والمعلمون

يفهمون أطفالهم تمام الفهم ، ويحاولون التأثير فيهم بتعديل بيئتهم ، وتحويل ميولهم إلى وجهات نافعة ، بعد أن أصبحوا يعرفون أسباب أفعالهم ومصادرها .

٧ — ساعدت على معرفة ضعاف العقول وعلى العناية بتربيتهم تربية عملية خاصة تتناسب وحالتهم العقلية .

obeikandl.com